رواية ثقافة شيطان: الكاتب أمين مرزاق

الفصل الأول: همسة الشيطان

تلتمسنا اللعنة في كل حين، يقال أن الطعنة طالما هي مكسب جاهز يتبختر بهنسيا في فؤادنا، ويحتدم علينا الشر همسات وسواسية..حرون مخنخس نتيجته دحض حقيقة الصفر..هل تمعنت للحظة نفسك ذات يوم في المرآة، غالبا ماتلتمس ملامحك وتردف في وجهتها أن عودتك للعالم الحقيقي أمر مستحيل، إلا إذا إستيقظ ملاك من ربيع فؤادك لينذرك أنك غصت في جمال وجهك؟؟..حتما يشتد الشك في هذا السؤال المرموق في ركن دائرة الغموض، والحقيقة هنا أشبه بالقزع..
أخبرني رجل حكيم ذات مرة أن الشتاء قادم!! وقفت متسمرا كجلمود..واستقطبت بعد الأفكار كالعادة من مفكرتي الناضجة؟؟ ماذا يعني هذا الكهل بدهاء السؤال!! غريب أمره، كأنه ترك رسالة مقتطفة من شعار اللامبالاة: تم بادرني بما جد قوله.. لاحظ بني الربيع قد زالت ثماره وحل الصيف وغفى تم انجلى حره والخريف أسدلت أوراقه في سطح الثرى، هاهو الشتاء قادم يحمل الشؤم الوشيك لتدمير تربة نافحة لمسك النسيم، حاولت الظفر بالمعنى واتضح لي ان تأجيل مئة وخمسون قضية اهم من تأجيل ما سبق، تألق ذاك القشيب في عقلي المستنير، أنار ضوء فيه لوهلة..أتعني ياصاح أن ما استعظم لسانك له نبضا ومسارا خاصا بما ولد آدم وحواء..
فهم الأمر وانصرف بعكازه الخشبي من طراز شجر الصفصاف..
كأنه حاول القول بأنه إن طارت الحمائم حاملة نذر السلام فستأتي الغربان لتأكل الجيف...

في تصرفه شيئ لم أفهمه، وهو لما سؤاله كمترع بالغموض، هؤلاء الحكماء لطالما نلتمس إليهم ليقدموا لنا الغالي والنفيس بدون ان يحظوا بترقية..غادرت إلى المنزل في عجالة هقل وعطش..أريد ان أضحي ببعض الطعام لمعدتي الخاوية ولو بقليل من الفرزدق، لعلني أصد جموح وشهوة نفس ضم جلدها الضلوع..إستلقيت على الفراش وغطيت النوافد كي لا تحل العاصفة، وإن حلت غالبا ماتحمل معها ذاك البرد الذي يكسر الزجاج ويحطم الدواخل..مرت ساعة على رقود يتيم للوسادة المتراخية،أخذتني لعالم الكوابيس..هنا تعيش الأطياف..تجوب أركان ذاك العالم الإفتراضي الأسود..من ذا يوقظني منه إلى عالم الأحلام السعيدة؟؟، فجأة طبطب صوت في مسمعي كأنها تلك الطيور الصباحية شرنقت أجنحتها وراحت تغرد ألحان السلام، أخذتني سنفونيتها لدار البقاء، طربها كالمعازف مبحوح صفيرها المتناغم كرقصة الحرية..
استنطق ابي قائلا تغيبت مرة أخرى عن المدرسة، ولما كل هذه الأوراق على الطاولة، هل تأرخ قصة عن رسوبك المدرسي؟؟..في المجمل مازلت غارقا في نومي ولم تصدمني الغفوة، كأنها إنتشت وودعتني لتعلن عن غيبوبة دائمة في برزخ الحياة..إلى كل ماجرى تلامس شيئ بارد جلدة جلدة أحسست بلسعة قوية..ما أحتاجه أنذاك نيارانا مشتعلة او ربما عناقا كان سيفيد..
شعرت ان الغفوة عادت..فتحت عيني بكل جحوظ وبعض براز البلازما الصباحي عليهما، تبللت ثيابي..آه يا أبي كعادتك لاتفرط في رشي بالماء كل يوم..لما لاتستعمل العصى على الاقل كنت لتنوع فعلك الشنيع..رد علي: على العموم إستشعار مسامات جلدك للبرودة خير من ضربك بالعصى لأنها بمثابة جريمة واغتصاب للجسد..ما قال لبث وأن استنار منطقا..

الفصل الثاني: الجعسوس
لرائحة الذنوب..

إحتجت لدقيقة وخمس ثوان لأغادر المنزل دون ان أتناول وجبة الإفطار، بوسعي ان أقول أني خطفت تفاحة مسمومة بغضبي من صحن بيتي البورجوازي الأنيق..وصلت دون أن ألحق حافلة النجاة..وكالعادة اتمرد أمام باب الحراسة، هذا الرجل الذي يحرس حيطان المدرسة.أتعنف معه القول كل صباح، أحتف زهقته الأقدار ليرتدي زيه الأزرق الرسمي لجلب قوت يومه كي يسد الرمق، اما رمق أولاده ربما هذا من ناحية قد تبدو صعبة، يتنحى جانبا لي كونه من طبقة فقيرة..وأنا من طبقة بورجوازية، إحترم الذل وأرذل ذاته كي يسمح لي بالمرور، استفزني الأمر أيضا..كيف للحياة ألا تكون منصفة بين الفقراء والأغنياء..معادلة صعبة صحيح!! المهم بت كذاك الفرعون الفاحش امام هذا العبد الضعيف..وصلت بخطى متانية إلى الصف والأستاذ كعادته غير مبالي..علم بأن أبناء الطبقة البورجوازية يجهضون إهتمام الدراسة..لو كان ولدا فقيرا لحمل عصاه..وأبلدني بالصفع والتأنيب والتوبيخ..جلست على طاولتي الحادية عشرة..أنتظر وأنتظر..عكف علينا الأستاذ قائلا اليوم لدينا درس في علم النفس..عارضه الطلاب..لا لا أستاذ نريد درسا يعلمنا قيمة التربية ويعلمنا قيمة الإحساس بالخطأ..تفتحت بشرته بابتسامة عريضة وأصبح كأمير التفاؤل..فعليا عليه بالإفتخار من ناحية..تم استقطبهم: حسنا حسنا لندرس الأخلاق والتربية وغدا علم النفس حسنا..لنبدأ معك أنت.!! ترى من يقصد هذا الأخير بكلامه..لمن وجه سبابته إحصائيات ان أكون انا المنشود..باتت في الصالح..إنه انا نعم ذاك الفتى الذي تغيب خمس وعشرون حصة، ذاك الذي رسب بامتحانات تجريبية..وذاك الذي يتأخر كل صباح يوم دون أن يشارطه أحد.وذاك الذي لم يستوعب قيمة العلم في هذا الجهل الشبح.. وذاك وذاك
توترت أعصابي لأول مرة أصبح الجميع يديرون رؤوسهم للطاولة الأخيرة وعلامة الحيرة بدت علي

إستنتجت أني في ورطة حقيقية، لم أجرب هذا الشعور البليد، أهكذا تكون الخيانة العلمية؟؟ تم أردف الأخير اقصد الأستاذ طبعا..حسنا

لأطرح عليك سؤالا جادا بخصوص الأخلاق، إليك التالي: كيف ترى العالم اليوم هل وصلت الإنسانية إلى حد اننا عدنا نسميها باللإنسانية..
ظننت أنه يمازحني، هذا بالكاد سؤال فلسفي يصعب على أمهر الطلاب حله ، وبنبرته الحادة نظر ثاقبا عيونه انا لا أمزح حواجبه توحي لذلك..تمهلت قليلا لأستوعب الجواب تم تعين علي الرد كي لا أنقص من قيمتي وقيمة طبقتي البورجوازية.. بدأت ابحث في الديجور داخلي، دون جدوى لا أجد غير السواد المدلهم..تمنيت حينها لو رفع عني القلم، الأستاذ ينتظر بلهفة وأنا وجهي كالأبلق،أخذت نفسا عميقا ورددت بسديم أفكاري:

الفصل التالث : فلسفة الشيطان

تم استقطبته: هل لي أن أنشدها على شكل قصيدة لعلها تؤثر في ذواتكم..لم يعارض على ماقلت فقط أردف : أطربني ياهذا الفضاء لك حر بما تقول: تم بدأت انشدها في الصف وأغردها لهم لا أعرف كيف استنطق لساني هذه الجمل الشعرية...

ملائكة في هيئة شياطين...
إلى كل أرب صدقت خيانته الصادقة..
إلى كل من تبخرتر بالنفاق لهجة ناطقة..
خذ لك يا جعسوسا مخنخسا بالنفاق هاذي الضربة الفائقة..
تبا إن استلمست وجه الحياة رائحة الحطاط وتلعب الشطرنج الراقصة..
للصنف أصناف وللوجوه اوطاف الوساوسة..
سمة الكذاب الهيكذوب مصيدة لأفعال الخير الراسخة..
أعذرني يا أبخرا مردفاتك لهيب لمبادئي المنافسة..
أما علمونا ان حبل الحطيئة أحداث متناكسة..
والصدق مع النفاق مزيج للا متجانسة..
فكيف نعلم الإنسية أفعال من نبض خبث هاجسة؟؟..
أهكذا أقوامنا بالغرب نتقدم وبالعرب مراتب أدنى متقلصة..؟؟
شبيهة هي الوجوه تطعننا كسيف الفرس والفارسة..
مشرمخون بقهقة ساخرة زائفة..
فعندنا نؤمن بالكذب نفاقا للورقة الرابحة..
يحنتمون أشاهرا وعيون للمكر هادفة..
للعنة الغد تمسر على خدودكم المتشابكة..
إيمانكم اشتف كليلة عاصفة..
ودمعكم تقليد لطبع التماسيح للفن الخبيث ممارسة..
ألعن ذا النفاق ولعنة الله أولى على روحكم البائسة..
إن الحل عندي فخذوه ضربة حظ رافسة..
ما هذا الخلق إلا ذنب من كل الذنوب المشاكسة..

بعد ان أنهيت هذه السطور وقف الأستاذ مسمرا في مكانه وذهل مما سمع وقف في ذهول تم أردف: لما هذا التشاؤم حدثني عن حزنك وأخبرته:
مشيت بخطى خافتة بين زقاق الحياة البائسة، أجر معي ما ثقل من الأحزان،لمحة ونفحة عن قضاياي المدمرة،روح مجبورة مكسورة..
لا أعلم سبب كل هذا؟؟ لأنه وفعليا ما أحزنني طعنة بمنجل القدر..وشتان ماسطرت باب الوحدة،جرف بضياع مستمر..وكم من مرة قد حلمت وحلمت أني قد أصير كذا..وكذا..لكن معادلة الحياة تسطر لي نتيجة سلبية،وماذا عساي أفعل.أظن أن على الأغنياء أمثالي ألا يحلموا..نعم أن الذي قبلت الأصدقاء كالسند واعتبرتهم كذراع اليمين.وهم الذين تخلوا عني في طرفة عين،مازلت أتذكر هذا الموقف..
كأن تضع تذكرة للجحيم الأبدي دون رجعة..تم أصبحت غامضا مجهولا غريبا في عمق وحدتي..وماهي إلا ساعات ودقائق حتى صارت الوحدة أنيستي الدائمة.أحكي لها قصتي الدرامية..كحفل زفاف لم تكتمل مراسيمه..أقبع أعلى جرف جبل وأحكي لها الحلقة الأولى من مسلسل موحش،ومالبتث هذه الأخيرة إلى أن صارت أنيستي..اه كيف أسرد لها أرقي في الليالي..وكيف أدخن موتي في الأعالي،غريب كيف تمنيت ألا أنجب للحياة،كأن رحم أمي كان لعنة،،ليتك تركتني وفتكت بروحي ولا أذوق طعم النسيم..
ليس السبب أني غني.بل السبب أني أخشى أن أكون سجينا للوحدة..

إذ الكل يتخلى عنك،جاهلين أن الإدمان على وحدتي.هو بمثابة غدر لايوصف..تم نادتني الوحدة :هيهات هيهات لك تعال نرفق حزنك ألما لاينقضي..أو تعرفون بما شبهني ما أردفت هي؟..بصلاة الجنازة..لاكروع ولا سجود لعل الله يرحم المنية..تم أخذنا نظرز بأنياب وسكاكين المصير على قلوبنا المخذولة،حتى تبللت الأرض دمائا..وسقت ترابنا الذي إليه نعود..وأصبح الكل يشيعون جثماني..
من مات من مات!؟..سجين الوحدة..

أذرف الأستاذ الدمعة، ونظر إلي بلمعة، تصفيق يبهت بالمكان والوحدة تملكتها السعادة، ازعم أن كلماتي بدت كرقي جبار...
استغرب الكل..واستغربت بدوري..كيف برزت مني وبدرت..؟؟
ما لبثت أعلمه أن إيماني بنفسي اقوى من خوفي المرصوص..
صرت شابا عشرينيا وفي هذا الشاب العشريني..رجل قشعم..
حكيم..هكع الهدوء القاعة ورن الجرس..فور خروجي للأخيرة وضع الأستاذ يده فوق رقبتي دون أن ينطق بكلمة نظرت لوجهه تم ابتسم..كأنه حاول أن يقول إياك أن تفقد الأمل في نفسك..خطفت بسمته ببسمة وخرجت توا إلى المنزل ..تعاقبت مع رصيف الشارع..وسمعت صوتا خافتا يندب على حظه السيئ..طفل صغير مشرد في العاشرة من عمره..ثيابه التي ارثاها الزمن..رأيته يداعب سلة المهملات باحثا على فتات خبز بين العفن..وبين رغيف خبز وحنف ماء يكمن الجوع..نظرت إليه نظرة طفل لطفل..محاولا أن أعرف خباياه الداكنة وعسى أن يطلعني على سره الدفين أمام هذه الثياب الرثة..تحسست شيئا في حقيبتي وربما كانت تلك التفاحة الصباحية المسمومة بغضبي..أخذتها وأرفقتها له وقلت: "هاك ياصاح" وبنبرته الجائعة أخذ التفاحة يأكلها في شره وتحسس طعم الحلاوة والعطف..بدا لي أنه لم يذق طعم الطعام لأعوام..يتحدثون عن الأمراض لكن أخطر مرض هو الجوع بحد ذاته..ألذ روحه وأمعنت لفكره أن قد إستفسرته: هيا بنا إلى ذاك الظل نتحدث فيه رفيقا رفيقا..لم يعارض لأني أثرت عليه ولو بقليل..تم حاولت جدب بعض ذكرياته: من أنت ومن أين أنت وهل أنت هو أنت؟؟ خاطبته هكذا كلمات مبهمة وأردف: أنا إبن الشارع وإبن الناس والأثلة..أعقبتني ظروف صعبة إلى مداعبة الشوارع ومهملاتها أنا لست أنا، بل الناس جعلتني أبدو هكذا...قصتي بدأت في فصل الربيع حيث أنعم بمراقصة فرحتي وسعادتي..أجر دربي المحفوف بالأمل مع أخواتي الصغيرات وأتناغم مع ألحان أبي وأمي، حينها مازلنا عائلة متراصة متحدة يعمها الصفاء والإخاء والمحبة..إلا أن جاء ذاك اليوم المشؤوم، إذ أصبح الشتاء ينذرنا بأن عاصفة حلت وعظمت شأنها..وذات يومها أصبح أبي يعمل في شركات الأبناك ويتقاظى راتبا زاهدا..الأمر الذي جعل الناس يحسدونه ويبغظونه..وهو كان يحب عمله أكثر مما يحب الأجر الذي يتقاضاه..ولهذا قرر سكان المنطقة أن يوقعوه في مصيدة ويجعلوه يرقد على الموت بسلام..لذا إنتظروا الفرصة المناسبة..وصل يوم الخميس إذ خرج والدي من الشركة حاملا معه حقيبة مليئة بأموال الموطفين..وذلك كي يفرزها في الليل وينقحها ويسلم لكل موظف مقدار راتبه الشهري..المهم خرج والدي مساء ذاك اليوم واعترض طريقه أربعة أشخاص وسرقوا ماله..وطعنوه على يده اليسرى وكسروا عموده الفقري..وأصبح متشللا دون حراك..استيقظ في المشفى على إثر صحته المجهضة لايكاد يحرك ساكنا،واستقطبه الدكتور بأنه لن يستطيع ان يقف مجددا..ومازاد الطين بلة أن أبي تم طرده من الشركة بعد أيام..زادت صدمته أكثر ولم يتحمل.
بالنسبة له فقد لبث حلمه أن تبخر وصار رماد..مازلت أتذكر الليلة المشؤومة إذ دملج القلم وأخد يكتب على الورق بقوة..متحسرا ويكتب إلى إبني العويز بناتي العزيزات وزوجتي المخلصة أراكم في الجانب الآخر"...
هذه آخر سطوره على ورق الموت..اكتشفت صباحا انه إنتحر بشظايا زجاج خرق بها أربطة يديه..فلونت الدماء حياتنا ظلمة: لم تتحمل أمي الصدمة وأصيبت بنوبة قلبية..أما أخواتي وأنا فقد طردنا السكان من المنزل وشردنا بدون رحمة ولا رأفة، وحفنة الخبز التي تراها في يدي سأقدمها لأخواتي الصغيرة فأنا الذي أجلب لهم الطعام كل يوم...لكن صدقني يوما ما سأنتقم..لن أستسلم حتى أجهض الباطل حقا..

الفصل الرابع: ظلمة وكبرياء..